المساواة والكرامة الإنسانية في شريعة الإسلام

المساواة والكرامة الإنسانية في شريعة الإسلام

الدكتور يوسف الكتاني ـ مغرب

بسم الله الرحمن الرحيم

لما كان الإسلام آخر الخطابات السماوية إلى الأرض، والكلمة الأخيرة المنزلة على خاتم الأنبياء والرسل عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، اقتضت حكمة الله ومشيئته أن يجعله دين البشرية جميعا، الصالح للمعاش والمعاد، والصالح لكل زمان ومكان مصداقاً للهدي القرآني: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾(1).

وقولـه: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾(2).

ولذلك خصّ الله هذا الدين بخصائص، وميّزه بمزايا لم تجتمع لدين غيره، باعتباره الدين الخاتم، وجعله مليئاً بالكمالات، متميزاً بالخصائص والصفات، كاملا دائماً بدوام الأيام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وكان رسوله سيدنا محمد بن

---

1 ـ سورة آل عمران: الآية ـ 19.

2 ـ سورة آل عمران: الآية ـ 84.

عبدا عليه أفضل الصلاة والسلام، رسول الإنسانية كلها، والناس جميعاً كما أكد ذلك القرآن الكريم:

قل يا أيها الناس إني رسول ا إليكم جميعاً...(1).

مما خصّ به الرسول الكريم وكان بذلك خاتم المرسلين وإمام الأنبياء. ومن هنا تميز الإنسان على سائر الموجودات والمخلوقات وبالتكريم والتقدير والعقل والتدبير، ليكون خليفة ا في الأرض، والقائم برسالته فيها، والموجه لمسيرة الحياة.

ـ لذلك رسم الإسلام للإنسانية نظاماً محكماً، ومنهجاً كاملاً، لانتظام الحياة، وتدبير أمور الناس ليقوموا بالقسط، وليحيوا حياة دنيوية مستقيمة آمنة بلاغاً للحياة الآخرة، وصراطاً لها، مصداقاً للهدي القرآني الكريم:

وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون(2).

ـ كما مزج الحق سبحانه تعالى بين الحياتين لارتباط الأولى بالأخرى، فيما أكد الرسول الأكرم عليه الصلاة والسلام: «ليس خيركم من ترك دنياه لآخرته، ولا آخرته لدنياه حتى يصيب منها جميعاً، فإن الدنيا بلاغ الآخرة، ولا تكونوا كلا على الناس»(3).

ولذلك كان الإنسان قطب راحة الوجود، وأساس الحياة، وسيد المخلوقات في شريعة الإسلام التي أحاطته بالرعاية الكافية، والعناية الشاملة، بما ضمن له من حقوق، ورتب عليه من واجبات، حتى تميز ديننا الحنيف بكونه دين حقوق الإنسان بين الديانات جميعاً.

_____

1 ـ سورة الأعراف ـ الآية: 158.

2 ـ سورة الروم ـ الآية: 64.

3 ـ أخرجه ابن عساكر عن أنس، وصححه السيوطي.

الإسلام أكثر الأديان رعاية للإنسان

يعتبر الإسلام أكثر الأديان كلها رعاية للإنسان، وأعظمها عناية به، وتقديرا لـه، باعتباره خليفة ا في الأرض، وأعظم مخلوقاته في هذا الكون، وهي الذي أعطاه قيمته الحقيقية، واعترف بإنسانيته، وجعله مناط تطور الكون وتقدمه، وتحقيق إرادة ا فيه، ولذلك حمله أمانة الحياة ومسؤوليتها، وأحاط بكل معاني التكريم، حتى اعتبر الرسول الأكرم.

«حرمة المؤمن أعظم عند ا من حرمة الكعبة المشرفة نفسها»(1).

لذلك يعتبر الإسلام في حقيقته وهدفه وتوجيهه للناس، إعلاماً وإعلاناً إلاهياً لحقوق الناس وواجباتهم، وما ينبغي أن يكونوا عليه، منذ خمسة عشر قرناً، من قبل أن تعرف الإنسانية كلها هذه المواثيق البشرية، والمعاهدات الدولية التي تدعو إلى رعاية هذه الحقوق، والتي لم تلق حتى الآن حظها من التطبيق السليم، والرعاية الواجبة برغم التطور الذي عرفته البشرية، والحضارة التي بلغها الإنسان في عصرنا الحالي، ولا شك أن هذا الإعلان الإلهي يعلو ويسمو على كل المواثيق الوضعية، والعهود البشرية، لكونه يقوم على الإيمان با، وابتغاء مرضاته، ورغبة في ثوابه، وخوفاً من عقابه.

كما يقوم على الضمير الديني الموجه لتصرفات الناس في السر والعلن، وفي كل أحوالهم، على مختلف مستوياتهم، وعلى أن ما يفوت ويمضي في الدنيا، لن يفوت في الآخرة، وعند من لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

وأمر آخر يمتاز به الإعلام الإلهي عن سائر المواثيق الوضعية، هو انه يرتفع

1 ـ رواه ابن ماجة في سننه ـ كتاب الفتن ـ باب حرمة ذم المؤمن وما لـه 2 / 1297.

بحقوق الإنسان، فيجعل رعايتها واجباً على المجتمع كله، على قادته وحكّامه وقضاته، كما هي واجب على صاحبها، يدافع عنها ولا يتهاون في الحصول عليها، ومن أجل ذلك اعتبرت الشريعة الإسلامية أداء الواجب قبل تقرير منح الحق والحرية اعتباراً على أن النهوض بالواجبات ضمان لصاحب الحقوق والحريات، لان ضمانها منشأه التشريع بما فرض من تكاليف وواجبات، ومن ثم كان الانطلاق في الحقوق والحريات العامة لا يستقيم مع التكليف، لأن التكليف لا ينفصل معناه عن مفهوم الحريات العامة في الإسلام، إذ إن ثمة تلازما بينهما، فالواجب يقابله حق، ولذلك قيل: لا واجب بلا حق لأن التكاليف حقوق للغير.

خصائص حقوق الإنسان في الإسلام

لذلك كان تقرير حقوق الإنسان وحرياته العامة منشأها التكاليف، وهذه مصدرها الأحكام التي هي مصادر الحريات، لا ذات الإنسان كما هي عند الآخرين (1).

وقد نظم الإسلام الحريات العامة، على اعتبار أن الحرية منشأها التكليف والمسؤولية لا حرية الانطلاق والفوضى، والأنانية والهوى، والخضوع لهيمنة الأعراف السائدة والتقاليد الموروثة، وكانت العقيدة الإسلامية أكبر ضمان للحريات العامة لتقييد سلطة الحكم، لكون ذلك مقيداً بالعدل، إذ نظمت الشريعة كيفية ممارستها على نحو معروف، امتثالاً وطاعة في التكليف، ووفاء بالأمانة التي حملها الإنسان، ولذلك قامت الحقوق على حقائق عقائدية، قبل أن تكون تصرفاً سياسياً أو مجرد نظام دستوري.

1 ـ حقوق الإنسان في التشريع الإسلامي ـ للدكتور فتحي الدريني ـ مجلة نهج الإسلام ص 32 ـ عدد ذو الحجة 1401 ـ أكتوبر 1981.

فكل حرية عامة في الإسلام مظهر للعقيدة والتقوى قبل أن تكون أمراً آخر، ومن ثم كانت ممارستها عبادة وخلقا، أداء للتكليف المبني على المسؤولية، وذلك ما ميزها وخصصها في الإسلام عن غيرها، وهذا ما جعل الحرية في الإسلام حقاً واجباً معاً، يؤكد ذلك أن حق الحياة مصون للإنسان شرعاً، غير انه في نفس الوقت واجب وتكليف تنهض المسؤولية عن أدائه والتصرف فيه، ولنضرب لذلك مثلاً بحق الحياة نفسه، فإذا كان من حق الإنسان أن يحيا، فإن من واجبه أيضاً أن يحيا، أداءً لأمانة التكليف وعمارة الدنيا، في ظل العبودية وتنفيذ شرعه، فليس حياته حقا خالصاً لـه يتصرف فيه كيف يشاء، وإنّما خلق ليؤدي واجباً لنفسه ولغيره، ولا يتأتى هذا إلا إذا كان واجباً عليه أن يحيا، لأنه لم يخلق عبثا ولا سدى:

أيحسب الإنسان أن يترك سدى(1).

لذلك يكون الاعتقاد بثبوت هذه الحقوق شرعاً بالتكليف والمسؤولية، هو منطلق ممارستها في المجتمع الإسلامي، تبعاً لمفهومها المنوط بالطابع الاجتماعي الإنساني.

هذا ولا نعلم تشريعا غير الإسلام، يؤصل من الأحكام العملية، والضمانات الحقيقية ما يجعل اندماج حياة الفرد في حياة الأمة أمراً واقعاً، بحيث تصبح قواماً موحداً، كما تندمج الارادات الفردية، حتى تصبح إرادة معنوية عامة للمجتمع، يتقرر على ضوئها مصيرهم جميعاً في حياتهم الدنيوية(2).

ومن أجل ذلك أبادر إلى القول: بأن ما ادعته وتدعيه الدول المعاصرة، من كونها كانت السباقة إلى الدعوة إلى حقوق الإنسان وتقريرها، وأن لها فضل الريادة في تطبيقها ورعايتها غير صحيح، وها هو التاريخ الحضاري والإنساني خير دليل وشاهد،

_____

1 ـ سورة القيامة: الآية: 36.

2 ـ حقوق الإنسان في التشريع الإسلامي ص 39.

فليس صحيحاً أن الإنجليز والفرنسيين كان لهم فضل الريادة والسبق في المطالبة بها، والدعوة إليها في ثوراتهم ومواثيقهم.

فقد تصور الناس نتيجة تأخر المسلمين، وتخلفهم عن السير بمقتضى أوامر دينهم، أن حقوق الإنسان مرتبطة بالعهد الأعظم الإنجليزي «ما جناكارتا» الصادر سنة 1215م. أو ميثاق توم سنة 1727م، أو إعلان الثورة الفرنسية سنة 1789 م، أو الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر سنة 1948م.

ولكن الذي علمته الإنسانية منذ خمسة عشر قرناً، والذي ينبغي أن يعلمه الناس اليوم، أن الإسلام أعلن هذه المبادئ وقررها منذ ظهوره، وكان السباق إلى الدعوة إليها وتقريرها ورعايتها، في أوسع نطاق وأكمل صورة، وأن الدولة الإسلامية على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ والخلفاء الراشدين من بعده، وقادة المسلمين وعلمائهم، كانوا أسبق إلى تقريرها، وتطبيقها على نحو رائع، وبشكل ما تزال الأمم المعاصرة لم تبلغه، وإن مجرد مقارنة بسيطة بين التشريعات السابقة على الإسلام، وكذا المذاهب اللاحقة عليه، تظهر ريادة الإسلام وأسبقيته في هذا الباب.

إن الإسلام دين حقوق الإنسان التي قررها القرآن، دستور المسلمين وكتابهم العظيم، كما أكدتها السنة الكريمة، وعمل الخلفاء، والعلماء، وتاريخ المسلمين، لقد امتلأ مسمع الدنيا كلها بصوت الرسول عليه السلام، بالوحي المنزل عليه، يعلم البشرية كلها، ويعلن لها كلها هذه الحقوق في هذا البيان الرائع المعجز:

﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾ (1).

_____

1 ـ سورة الحجرات ـ الآية: 13.

إن القرآن والسنة ظلا دوماً المنبع والمصدر لكل حقوق الإنسان وحرياته، وقد حفلت نصوصها بالمبادئ الإنسانية السامية لتلك الحقوق والحريات، وكان كل منهما مكملاً للآخر في تفصيل وتدقيق معجز رائع،

وعلى هديهما سارت دولة الإسلام ومجتمعات المسلمين في مختلف العهود.

وإن أروع مثل لدعوة إلى حقوق الإنسان وحرياته، ومدى ما بلغته من تقرير ورعاية في دين الإسلام، ولدى رسول الإسلام، هي خطبته في حجة الوداع، التي أبي عليه السلام إلاّ أن يضمنها آخر وصيته للمسلمين، يضمنها دعوته للحفاظ على تلك الحقوق، وصيانتها، والدفاع عنها.

وسنجتزئ هنا بالكلام على حقين من الحقوق الأساسية هما:

1 ـ المساواة بين الناس.

2 ـ والكرامة الإنسانية.

أولاً: المساواة بين الناس

كان من بين الحقوق الأساسية التي شرعها الإسلام، وقررها للناس، وأوجب تطبيقها، والعمل بها، حق المساواة الذي يعتبر في شريعة الإسلام أساساً لعلاقات الناس فيما بينهم، ومظهراً من مظاهر العدالة الاجتماعية، وركيزة لكرامة الشخص، واعتبار قيمته الإنسانية.

وقد اعتبر الإسلام مبدأ المساواة عقيدة أساسية يجب أن يدين بها المسلم، وأن يحرص عليها ويتصف بها، ويطبقها في حياته كلها، وجعل ذلك أساساً ومبدأ تقوم عليه حياة الناس فقال في القرآن الكريم:

﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن

أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾ (1).

فالناس جميعاً منحدرون من أب واحد، وأم واحدة، وأن تقسيمهم كذلك ليتعارفوا ويتمازجوا ويحب بعضهم بعضاً وليتكاملوا لصالح الجماعة كلها والبشرية كلها.

كما قام هذا المبدأ على أمر آخر وهو تمييز الإنسان على سائر المخلوقات، باعتباره أسماها وأكرمها عند ا: ﴿ولقد كرمنا بني آدم﴾.

أي تكريم الجنس البشري كله ولم يخص فرداً دون آخر. كما شملت هذه المساواة الذكر والأنثى، وهم متكاملون بعضهم من بعض، ولا فضل لأي منهما على غيره بل الفضل في ذلك للخالق:

﴿فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض...﴾ (2).

فليس بينهم فرق في جوهر الطبيعة أو في الأصل، وهم جميعاً مسؤولون ومثابون أو معاقبون.

﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء، واتقوا ا الذي تساءلون به والأرحام، إن ا كان عليكم رقيباً﴾ (3).

لقد أوجب الإسلام تطبيق حق المساواة والتمسك به في جميع نواحي الحياة،

---

1 ـ سورة الحجرات: الآية 13.

2 ـ سورة آل عمران:الآية 195.

3 ـ سورة النساء : الآية 1.

ونادى بالعمل به في الحقوق المدنية، والمسؤولية، والعقاب، وفي جميع الحقوق العامة.

ومن أجل هذا يعتبر الإسلام بني البشر جميعاً، متساوين في طبيعتهم البشرية، ولا تفاضل بينهم، بحسب الخلق، أو العنصر، أو السلالة، أو اللون، وإنما هم يتفاضلون، بكفايتهم وأخلاقهم وأعمالهم، وذلك مصداقاً لقوله تعالى:

﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند ا أتقاكم إن ا عليم خبير﴾ (1).

وقد عمل الرسول ـ صلى ا عليه وآله ـ بقوله وفعله طوال حياته، على تطبيق هذا المبدأ الإسلامي العظيم، باعتباره أصلا من أصول الإسلام، وأساساً من الأسس التي يقوم عليها مجتمع المسلمين. وقد أبى في خطبة الوداع إلاّ أن يؤكد ذلك، ويدعوا الأمة إلى التمسك بهذا الحق واعتباره، فقال:

«أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب» (2).

وقد غضب غضباً لم ير مثله على وجهه، عندما سمع أبا ذر الغفاري يحتد على بلال ويعيره بلونه قائلاً:

«يا بن السوداء» فزجره الرسول ورده بقوله:

«يا أبا ذر أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية، إخوانكم خولكم جعلهم ا تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، ويلبسه مما يلبس، ولا

_____

1 ـ سورة الحجرات ـ الآية: 13.

2 ـ رواه الامام أحمد في المسند ورجاله رجال الصحيح ـ مجمع الزوائد للهيثمي 3 / 266 ـ كشف الأستار 2 / 435.

تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم» (1).

فاستجاب أبو ذر لأمر الرسول ـ صلى ا عليه وآله ـ ، ووضع خده على الأرض، وأقسم أن يطأه بلال برجله توبة وتكفيراً، عما صدر عنه من أخلاق الجاهلية.

وإن أفضلية الإسلام وريادته في هذا المجال، تظهر في أنه لا يقرّ المبادئ الضالة التي عرفتها الإنسانية قبله، وهذه الجاهلية التي عادت إليها الإنسانية حتى في عصر التمدن الحالي.

لقد شجب الإسلام تلك الامتيازات التي قامت في مجتمع الهنود والرومان واليونان، تمييز الناس بعضهم على بعض، بحسب العنصر أو الجنس، أو التكوين، ولذلك حرم التفاضل الذي ميز الشعوب عن بعضها، والأوصاف التي أطلقتها على نفسها «كالشعب المختار» و«شعب ا» ومن «شعوب ناقصة» وأخرى «كاملة الإنسانية» بحسب نشأتها وطبيعتها الأولى، وبالتالي ذلك التمييز الذي قام بين الناس تبعاً لتلك الأوصاف، فهذا كله حرمه الإسلام وألغاه، واعتبره جاهلية وانحطاطاً للإنسانية عن مكانتها الرفيعة التي وضعها ا فيها بقوله:

ا يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء ا (2).

والتي نادى بها الرسول وطبقها في قولـه:

«ليس لعربي على عجمي فضل، ولا لعجمي على عربي فضل، ولا لأسود على أحمر فضل، ولا لأحمر على أسود فضل إلاّ بالتقوى».

_____

1 ـ أخرجه البخاري في صحيحه 1 / 13، ط. دار الفكر.

2 ـ سورة النساء ـ الآية: الأولى.

3 ـ رواه الطبراني في الكبير ـ مجمع الزوائد للهيثمي 3 / 272.

وتطبيقاً لهذا المبدء وعملاً به، لا يقر الإسلام هذه الدعاوى الجاهلية التي عادت إلى الظهور، وانتشرت اليوم، من التمييز بين الشعوب حسب ألوانها، واعتبار الرجل الأبيض سيد العالم، وتمييزه في المعاملة وسائر الحقوق عن الرجل الأسود، في التعليم والوظائف، كما يحصل الآن في بعض الدول الافريقية وبعض مدن أمريكا مثلاً.

إن الإسلام جعل من بلال الحبشي، وصهيب الرومي، وسلمان الفارسي، دعاة وقادة وحكاماً، حتى قال الرسول عن سلمان إنه من أهله وأهل بيته، وهذا هو منتهى التكريم والتقدير للإنسان، باعتباره إنساناً فحسب.

تطبيقات الإسلام لمبدأ المساواة

لعل الإسلام أعظم دين قرر مبدأ المساواة بين البشر في أتم صورة وأكمل وضع، واعتبره الأساس في علاقات الناس بعضهم مع بعض، ورغب في تطبيقه في جميع مناحي الحياة حتى جعله قوام العدالة الاجتماعية، وأساس الكرامة الإنسانية.

ومن هنا شمل تطبيق الإسلام وتقريره لمبدأ المساواة جميع مظاهر حياة الإنسان، سواء فيما يتعلق بتقدير القيمة الإنسانية المشتركة، أو فيما يتعلق بالحقوق والمسؤولية، والجزاء، أو فيما يرتبط بشؤون الاقتصاد تحقيقاً لخير الناس واستقرارهم وسعادتهم، وأحاطه بسياج من الرعاية والحماية من كل انحراف أو عبث أو زيغ، حتى كان مظهراً من مظاهر سمو الدين الإسلامي وسمو تعالميه التي حققت للإنسانية وللناس الأمن والطمأنينة والاستقرار.

وسنتحدث على هذه النقاط الثلاث لنتعرف على مدى صلاحية الإسلام وفضله في هذا المجال:

1 ـ المساواة في القيمة الإنسانية المشتركة

ويعني ذلك أن الناس جميعاً متساوون في طبيعتهم البشرية، إذ أنهم من أصل واحد وطبيعة واحدة:

﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم﴾(1).

وأن ليس هناك فرد أو جماعة تتميز عن غيرها بحسب عنصرها وخلقها الأولى، وإنما التفاضل يكون بأمور خارجة عن طبيعتهم وعنصرهم وسلالتهم، أي على أساس التقوى والعمل الصالح.

2 ـ المساواة في الحقوق والمسؤولية والجزاء

وتقوم هذه المساواة على أساس أن العدل الإسلامي لـه ميزان واحد، وتطبيق واحد على جميع الناس، في جميع شؤون الحياة، حقوقاً، ومسؤولية، وجزاء، انطلاقاً من قول ا تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا ا إن ا خبير بما تعملون﴾ (2).

ويؤكد هذا المعنى رسول ا (صلعم) بقوله: «إنّما أهلك الذين من قبلكم انهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم ا لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» (3).

وهو ما ذهب إليه عمر بن الخطاب في رسالة القضاء إلى أبي موسى الاشعري قائلاً:

(آس بين الناس في وجهك ومجلسك، وعدلك، حتى لا يطمع شريف في حيفك،

---

1 ـ سورة طه ـ الآية: 55.

2 ـ سورة المائدة ـ الآية: 8.

3 ـ أخرجه البخاري في صحيحه 5 / 97.

ولا ييأس ضعيف من عدلك).

كما يحرص على تأكيد ذلك في وصيته للخليفة من بعده بقوله: (اجعل الناس عندك سواء، لا تبال على من وجب الحق، ثم لا تأخذك في ا لومة لائم، وإياك والمحاباة فيما ولاّك ا).

كذلك سوّى الإسلام بين الناس في حق التعليم، وجعله فرضاً واجباً على كل فرد بما ينفعه في دينه وشؤون دنياه، مصداقاً لقوله ـ عليه السلام ـ : «طلب العلم فريضة على كل مسلم» (1).

يدل على ذلك ويوجهه أن أول الوحي دعوة إلى العلم والتربية.

كذلك سوى الإسلام بين الناس في حق العمل، وجعله حقاً مشاعاً بين الناس، وحث عليه ورغب فيه:

هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه (2).

ودعاهم أن يمارسوا أعمالهم، ويعودوا إليها إثر الفراغ من صلاة الجمعة كما أكد ذلك القرآن الكريم:

فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل ا... (2).

وقد عمل النبي في الرعي وفي التجارة لزوجته خديجة قبل أن ينبأ ويرسل إلى الناس، وحبب العمل إلى صحابته ليكسبوا ولا يكونوا عالة على غيرهم، وعندما عاد من غزوة تبوك استقبله معاد وصافحه، فأحس بخشونة يده فقال لـه:

---

1 ـ رواه ابن عبد البر في العلم عن أنس، والبيهقي في شعب الإيمان ـ انظر مختصر شرح الجامع الصغير للشرنوبي 2 / 89.

2 ـ سورة الملك ـ الآية: 15.

3 ـ سورة الجمعة ـ الآية: 10.

«تلك يد يحبها ا ورسوله».

ولم تقتصر التسوية بين أفراد المجتمع الإسلامي على المسلمين بل شملت التسوية بين المسلمين وغير المسلمين مصداقاً للقاعدة الشرعية: (لهم ما لنا وعليهم ما علينا) (1).

فللذميين ما لنا من الحقوق، وعليهم من الواجبات ما للمسلمين مثلهم، وعلى الدولة أن تقاتل عنهم كما تقاتل عن رعاياها من المسلمين، بل إن المسلمين وخاصة حكامهم، مطالبون بأكثر من ذلك في مقابل أهل الذمة بحسن المعاملة والحماية تأكيداً للتوجيهات النبوية الكريمة: «من آذى ذمياً فأنا خصمه، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة» (2).

«ومن ظلم معاهداً أو انتقصه حقه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس، فأنا خصمه يوم القيامة» (3).

التسوية بين المرأة والرجل

لقد أحدث الإسلام بتقرير حق المساواة بين الرجل والمرأة، تغييراً جذرياً في الحياة، بعد أن ظلمتها الأجيال والأمم، وهضمتها حقوقها، وحرمتها من أبسط الحقوق، واعتبرتها مجرد اداة للزينة والتسلية، وموطئ الشهوة والولد، فقرر الإسلام فيما قرر مساواتها التامة بالرجل في جميع الحقوق والواجبات، وفي المسؤولية والجزاء وفي كل مجالاة الحياة، فكان بذلك أول من قرر حقوقها وواجباتها، وحماها في ذلك حتى أنه جعل منها خلال عقدين من الزمن نداً للرجل، و

---

1 ـ من رسالة خالد بن الوليد إلى مرازبة فارس ولاة كسرى على ألوية العراق عندما هم بفتحها.

2 ـ رواه الخطيب في التاريخ.. انظر مختصر الجامع الصغير للشرنوبي 2 / 269.

3 ـ المرجع السابق 2 / 269.

مساوية لـه في جميع الحقوق والوجبات، وعضوا مهما في المجتمع، فقال عليه الصلاة والسلام:

«النساء شقائق الرجال» (1).

أي أمثالهم، وما يزال الإسلام بعمله هذا متميزاً عن كل الأديان والشرائع، والنظم الحديثة في هذا المجال.

فقد سوى الإسلام بين الرجل والمرأة في جميع الحقوق، وفي شؤون المسؤولية والجزاء:

﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون﴾ (2).

﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والاقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والاقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً﴾ (3).

وسوى بينهما في الحقوق المدنية على اختلاف أنواعها، لا فرق بين المرأة المتزوجة وغيرها، والزواج لا يفقد المرأة شخصيتها المدنية، وممارسة كامل حقوقها، والمحافظة على أسمها وشخصيتها، ولم يفرق الإسلام بين الجنسين في الحقوق، إلاّ من حيث تدعو إلى ذلك مراعاة طبيعة كل من الجنسين في الحياة، وما يصلح لـه، وكفالة الصالح العام، وصالح الأسرة، وصالح المرأة نفسها.

---

1 ـ رواه الإمام احمد في المسند 6 / 256 ـ وأبو داود 1 / 61 ـ والترمذي في سننه 1 / 74 و75 والدارمي في سننه 1 / 195.

2 ـ سورة النحل: الآية: 97.

3 ـ سورة النساء ـ الآية: 7.

3 ـ المساواة في شؤون الاقتصاد

وقد وضع الإسلام في هذا المجال نظاماً دقيقاً يحقق تكافؤ الفرص بين الناس في النواحي الاقتصادية، ويذلل لكل فرد سبل الحصول على المال، ويعطي لكل مجتهد جزاء اجتهاده، تحقيقاً للتوازن، وتقليل الفروق، وتقريب الناس بعضهم من بعض، وبما يحول دون تضخم الثروات، وتجميعاً في يد أو أيد قليلة، وعمل كل ما يجرد المال من حق السيطرة والاحتكار، والتحكم في رقاب الناس.

فقرر في هذا المجال الملكية الفردية وحماها، وذلل أمام الفرد سبل التملك والحصول على المال، وشجع على العمل، وفتح المجال أمام المنافسة والعمل على التفوق، وعلى أن تقوم العلاقات الاقتصادية بين الناس على التكافل والتعاون، والتواصي بالبر والإحسان والعدل، كفالة للضمان الاجتماعي في المجتمع، وتحقيقاً لمجتمع الكفاية والعمل، الذي يضمن للناس حياة إنسانية كريمة.

وهكذا نجد أساس النظام الاقتصادي الإسلامي يقوم على:

ـ يقرر الملكية الفردية ويحيطها بسياج من الحماية.

ـ ويذلل أمام الفرد سبل التملك والحصول على المال.

ـ ويشجع على العمل ويعطي لكل مجتهد جزاء اجتهاده من ثمرات الحياة.

ـ ويفسح المجال أمام المنافسة والعمل على التفوق والإبداع والابتكار.

ـ ويحقق تكافؤ الفرص بين الناس.

ـ وينظم وظيفة رأس المال، ويحيطه بكل ما يمنعه من السيطرة والاستغلال.

ـ ويحول دون تضخم الثروات وتجميعها في يد واحدة، بما قرره من إرث، ووصية وزكاة، وصدقات، وكفارات.

ـ ويجعل ملكية الأشياء الضرورية لجميع الناس ملكية جماعية.

ـ ويبيح نزع الملكية الفردية للصالح العام.

وبذلك قام النظام الاقتصادي الإسلامي على أساس:

1 ـ إن الإنسان غاية لا وسيلة.

2 ـ قيام العلاقات الاقتصادية بين الناس على أساس أخلاقي، تحقيقاً للتكافل والتعادل والتضامن الاجتماعي.

3 ـ تحريم طرق الكسب غير المشروع، وهي التي تقوم على استغلال النفوذ والربا، والرشوة والغش، والابتزاز، والتحكم في ضروريات الحياة.

4 ـ الترغيب في الانفاق والتصدق بكل ما زاد عن الحاجة من أجل الصالح العام.

5 ـ جعل اكتناز المال وعدم إنفاقه في سبيل ا من أكبر المعاصي.

6 ـ حق المسلم في الغذاء والكساء والعمل، بغض النظر عن أي اعتبار.

وكفالة الدولة لهذه الحقوق.

إن من شأن هذه المبادئ أن تحقق استقرار التوازن الاقتصادي بين الطبقات والأفراد.

وتضيق المسافات بين الناس بتقريبهم بعضهم مع بعض وتكفل للجميع حياة إنسانية كريمة يأمن فيها كل فرد على حياته وأمنه واستقراره (1).

ثانياً: الكرامة الإنسانية

ونتكلم هنا على عنصرين أساسيين هما:

1 ـ المفهوم الإسلامي للكرامة.

2 ـ ومظاهرها.

_____

1 ـ انظر تفصيل ذلك في كتابنا «معالم إسلامية» ص 33 ـ 36.

1 ـ المفهوم الإسلامي للكرامة

انطلق الإسلام في مفهومه للكرامة الإنسانية من نظرته الصحيحة إلى الكون والإنسان، الذي جعله الله خليفة في الأرض: ﴿هو الذي جعلكم خلائف في الأرض﴾ (1).

تحقيقاً للغاية الكبرى من وجوده، وهي إفراد الله بالعبادة والألوهية، وتحقيقاً لاعتباره الحياة الدنيا بلاغاً للحياة الأخرى، وعلى انها فترة اختبار وإعداد.

﴿ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً﴾ (2).

ومن هنا كان مفهوم الإسلام للكرامة الإنسانية، أبعد من أن ترتبط بنسب، أو حسب، أو جاه، أو منصب، أو

مال، بل حصره وحدده في أمر واحد هو التقوى، فالأكثر تقوى هو الأكرم على ا وعلى خلق ا: ﴿إن أكرمكم عند ا أتقاكم﴾

باعتبار وحدة أصل الإنسان كما أكد ذلك الإمام الشافعي:

الناس من جهة التكوين أكفاء ___ أبوهم آدم والأم حواء

فإن يكن لهم في أصلهم شرف ___ يفاخرون به فالطين والماء

وبذلك يكون المقياس والميزان في كرامة الناس في الإسلام، هو العمل الصالح لخير الإنسان وخير مجتمعه، وما ينفع الفرد والجماعة، والاهتداء إلى الحق والتمسك به والتزامه.

وعملاً بذلك وتطبيقاً له نص القرآن الكريم على أن الكفر أضاع كرامة ابن نوح،

_____

1 ـ سورة فاطر ـ الآية: 39.

2 ـ سورة الإسراء ـ الآية: 19.

فأغرقه الطوفان مع قوم نوح، بالرغم من دعاء والده وهو من أولي العزم من الرسل:

﴿إنّه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح﴾ (1).

كما حفظ الإيمان كرامة عبدا بن أم كتوم حين أنزل ا في شأنه قرآنا: ﴿عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذّكر فتنفعه الذكرى﴾ (2).

تعليماً لرسوله الكريم عندما انصرف عنه، طامعاً في إسلام قوم من وجهاء قريش الذين أسقط الكفر

كرامتهم.

ومن هنا لا تكون كرامة لمن يغضب ربه، ويخالف عن أمره، ويسعى في الأرض الفساد، ولو كان جاهه عريضاً، ومكانته متميزة، مصداقاً للهدي القرآني: ﴿ومن يهن الله فما له من مكرم﴾ (3).

وهو ما أكده الرسول الأكرم بقوله: «إن العبد لينشر له من الذكر ما بين السماء والأرض، لا يساوي عند الله جناح بعوضة» (4).

أي لا كرامة له عند الله، لأنه يخفي حقيقته وعمله عن الناس ويكون جاهه وشهرته حجة عليه، ومسؤولية يتحملها يوم القيامة، مما يؤكد أن الشهرة والجاه والمكانة لا علاقة لها بكرامة الإنسان، إذا لم يكن عمله صالحاً يرضي الله عز وجل.

ومن هنا كان مفهوم الكرامة في الإسلام يرتبط بالعفو عن الظلم، والإحسان إلى

_____

1 ـ سورة هود ـ الآية: 46.

2 ـ سورة عبس ـ الآية: 1 ـ 3.

3 ـ سورة الحج ـ الآية: 18.

4 ـ رواه العراقي في المغني، والقاري في الأسرار المرفوعة ـ انظر معجم أطراف الحديث 3 / 109.

المسيء، والصفح بدل الانتقام، والسماحة تجاه أفراد المجتمع الإسلامي.

كما يتنافى هذا المفهوم السامي للكرامة في الإسلام مع كل تجبر، أو طغيان، أو احتقار للناس، أو استعلاء على الخلق، للعرف الجاهلي الذي ساد ويسود اليوم بين الناس من أن الانتقام من الناس، والشدة

عليهم، والتعالي، والتجبر، صفات تثبت قوة الإنسان ومركزه وكرامته، وهي أخلاق وصفات شجبها الرسول الأكرم وحمل عليها في قوله: «بئس العبد عبد تخيل واختال ونسى الكبير المتعال، بئس العبد عبد تجبر واعتدى، ونسى الجبار الأعلى، بئس العبد عبد سها ولها، ونسى المقابر والبلى، بئس العبد عبد غنى وطغى، ونسى المبتدأ والمنتهى، بئس العبد عبد هوى يضله، بئس العبد عبد رغب يذله» (1).

كما يؤكد هذا المعنى السامي للكرامة الإنسانية في الإسلام الحديث الشريف الصحيح:

«المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ها هنا ثلاث مرات ـ وهو يشير إلى صدره الشريف ـ بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام: دمه، وعرضه، وماله»(2).

2 ـ مظاهر الكرامة الإنسانية في الإسلام

لقد جعل ا الإنسان أرقى وأكمل المخلوقات، وخصه بالمزايا، وميزه بكمال الصفات، لما أودع فيه من العقل، وحسن الإدراك، وكمال التمييز، وجميل الصورة والخلق، كما أكد ذلك القرآن الكريم وفصله في آياته وسوره بقوله:

_____

1 ـ رواه الترمذي والطبراني.

2 ـ رواه أبو داود في سننه ح 4882؛ والزبيدي في الإتحاف 7 / 533.

لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم (1).

خلق السموات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير (2).

ولقد كرمنا بني آدم، وحلماهم في البر والبحر، ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا

تفضيلا (3).

فكان العقل الذي ميز ا به الإنسان هو أسمى مظاهر تكريمه، والآية الناطقة الدائمة على كرامته، وبه ساد على العوالم الأرضية وبه أطلع على ما شاء ا من العوالم السماوية، والآيات الكونية، التي أدركها وما زال يدركها مستقبلاً مما يتيح ا له إدراكها، وسبر أغوارها، والاطلاع عليها.

كما كرمه بالكلام والإفصاح، وتعلم اللغات، والكتابة والنطق، وعلمه ما لم يكن يعلم، مصداقاً للهدي القرآني:

الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان (4).

وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل ا عليك عظيماً (5).

ومن مظاهر تكريمه وكرامته تسخير الكون له، وجعله مجالا لتعلمه وكشوفه وإبداعه، سخر له ما في السموات وما في الأرض، وهداه إلى التفكير بعقله، وإدراكه، والسعي بعمله وكفاحه، إلى الغوص في أسرار الكون، والبحث فيها، واستجلاء آفاقها، فحقق هذا التقدم المذهل، وتوصل إلى هذه الكشوف والاختراعات التي

---

1 ـ سورة التين ـ الآية: 4.

2 ـ سورة التغابن ـ الآية: 3.

3 ـ سورة الإسراء ـ الآية: 70.

4 ـ سورة الرحمن ـ الآية: الأولى.

5 ـ سورة النساء ـ الآية: 113.

سمت بحياة الإنسان وبقدره، فحقق بها إرادة ا فيه كما أكد ذلك القرآن الكريم.

وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه (1).

بل ذهب القرآن إلى أبعد من ذلك من مظاهر كرامة الإنسان وتكريمه أن أنبأه ا بأنه سيكشف المجهول، وسيخترق الآفاق والفضاء، وسيقطع المسافات والأبعاد الكبرى في أقصر الأوقات، وسيركب السماوات الطباق، أنبأ الإنسان والمسلمين بخاصة بذلك قبل مئات السنين، وقبل أن تصل الإنسانية إلى ما وصلت اليوم كشف علمية، واختراق الفضاءات العليا كما جاء في القرآن:

فلا أقسم بالشفق والليل وما وسق والقمر إذا اتسق لتركبن طبقا عن طبق (2).

وهو ما فهمه العلماء المسلمون بعد نزول القرآن بزمن قليل، حتى ذهب الإمام الطبري: (على أن المراد من هذه الآيات أن الإنسان سيركب سماء بعد سماء) أو كما وصفها القرآن:

بالسبع الطباق (3).

وهو المعنى الذي ذهب إليه الامام الرازي بقوله:

(بإمكان حدوث ذلك وتحققه مهما كان خارقاً على يد الإنسان، استنتاجاً من قوله تعالى:

وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء (4).

أي إمكان وصول الإنسان إلى السماء لارتياد الفضاء، لأن ا فرض لهم قدرة

---

1 ـ سورة الجاثية ـ الآية: 13.

2 ـ سورة الانشقاق ـ الآية: 16 ـ 19.

3 ـ انظر تفسير الطبري ـ الجزء الثلاثون ـ سورة الانشقاق.

4 ـ سورة العنكبوت ـ الآية 28.

فيكون لهم صعود في السماء (1).

وهو سبق إسلامي علمي قبل ألف عام، وقبل أن يصبح هذا الأمر حقيقة علمية، مما يؤكد التوفيق بين قيم الدين وقيم العلم في شريعة الإسلام.

ومن مظاهر هذه الكرامة للإنسان، تقرير الإسلام لمختلف حقوق الإنسان التي تكفل خلافته عن ا في الأرض، وقيامه بالمسؤوليات المنوطة به في الحياة، والعمل بما يحقق سعادته في الدارين وكان في مقدمة تلك الحقوق حقه في الحياة الذي يعتبر أصل الحقوق، بما يتضمنه هذا الحق من المحافظة على حياته وعدم الاعتداء عليها، وعدم التفريط فيها، وقد عصمت الشريعة دم الإنسان، وحرمت قتله مصداقاً للهدي النبوي:

«كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه» (2).

واشترطت أن يكون صحيح الجسم، سليم العقل، حسن الخلق.

لذلك كانت محافظة الإنسان على نفسه، واحترامه لنفس غيره، تقديراً منه لحق الحياة الذي تقرره الأديان، وتصونه الفطرة، وتحميه الشرائع، واعتبرت الشريعة الخروج على ذلك ظلماً وضلالاً يؤدي إلى النار.

وقد شدد الإسلام في الدعوة إلى الحرص على المحافظة على الكليات الخمس.

ومن مظاهر هذه الكرامة الإنسانية حرص الإسلام على احترام آدمية الناس، وعدم إهدارها، باسترقاقهم

واستعبادهم وظلمهم، لأن الإنسان وجد حراً ليبقى حراً، كما أكد هذا المعنى السامي في الإسلام عمر بن الخطاب بقوله:

---

1 ـ راجع تفسير الرازي ـ مفاتيح الغيب ـ سورة العنكبوت.

2 ـ أخرجه مسلم في صحيحه ـ البر والصلة ب 10 رقم 32 ـ والإمام أحمد في المسند 2 / 277 و 360 والترمذي ح 1927.

(متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا) (1).

وبهذا يتأكد أن الإسلام كان أول دين إلهي نادى بحقوق الإنسان وله الريادة في تقريرها وإيجابها، وأنه تميز بالربط بين الحقوق والواجبات، وأول من ساوى بين الرجل والمرأة في تاريخ البشرية، وجعل مصدر هذه الحقوق والواجبات إلهياً بتشريعها وإيجابها عن طريق الوحي في القرآن الكريم، كما أكده الرسول وأصلها وطبقها، ودعا إلى تطبيقها واحترامها في السنة النبوية الشريفة، وسيرته الطاهرة، حتى كانت خطبة حجة الوداع دعوة كريمة، ووصية خالدة للأمة الإسلامية، بالحفاظ على تلك الحقوق، وصيانتها والدفاع عنها.

وقد آن للمسلمين في عصر صحوتهم الإسلامية التي انطلقت مع القرن الهجري الجديد، أن يعودوا إلى دينهم فيبنوا على أركانه ومبادئه وقيمه، دولهم وأنظمتهم، ومؤساتهم ومجتمعاتهم، ففي ذلك خيرهم وصلاحهم، وفلاحهم وقوتهم، لأن الإسلام هو هويتهم وقدرهم، ولا سبيل سواه لهم، مصداقاً لقول عمر بن الخطاب:

(نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، مهما ابتغينا لاعزة بغيره أذلنا).

وإن أجمل مانختمه به هنا، هذا التوجيه السامي لأمير المؤمنين الحسن الثاني، في رسالة القرن الهجري الجديد التي وجهها إلى شعبه وإلى سائر المسلمين، فقد قال فيها: «لنعقد العزم على تأدية رسالتنا بأداء حقوق الله وحقوق العباد، وعون عشاق الحرية على التحرير والخلاص في كافة أرجاء البلاد، ولا سيما

إخواننا الاماجد من أبناء شعب فلسطين المجاهد، وقبلتنا الأولى وقدسنا الشريف الخالد، ولنقف على قدم الاستعداد، بكل ما يلزم من العدة والعتاد، واثقين بحقنا، متمسكين في نفس

_____

1 ـ سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزي.

الوقت بديننا، معتزين بحضارتنا، حريصين على حفظ مقوماتنا، والدفاع عن كياننا، ملتزمين في حياتنا اليومية بآداب عقيدتنا، وتعاليم شريعتنا، ولنتسلح لمواجهة مسؤولياتنا الثقيلة والمتنوعة في هذا العصر، باكتشافات القوة الفكرية التي هي «قوة العلم» وأدوات القوة المادية، التي هي قوة السلاح، وطاقات القوة الروحية التي قوة الأخلاق، ولنجعل شعارنا اليومي الدائم، العلم النافع، والعمل الصالح، والإنتاج المستمر، والكسب المشروع، والرقي المطرد، والتنافس المحمود، والسير الدائم إلى الأمام، وضرب المثل لبقية الأقوام، ولنحوّل دنيا الإسلام الواسعة التي لا تغيب عنها الشمس إلى «مسجد كبير» نعبد الله جميعاً في محرابه، ونقوم فيه بالخلافة عن الله في الأرض طبقاً لما جاء في كتابه، ولنجعل من القرن الجديد حلقة ذهبية في تاريخ الإسلام المجيد» (1).

_ اقتراحات وتوصيات _

نظراً لأهمية هذه الندوة الإسلامية الكبرى، ولعطاءاتها المتجددة، فإنني أقترح التوصيات التالية:

1 ـ ضرورة إصلاح التعليم في البلاد الإسلامية، وجعل مناهجه وبرامجه متفقة مع تعاليم الإسلام ومبادئه وقيمه، لأن إصلاح التعليم أساس كل إصلاح.

2 ـ العناية بالتربية الإسلامية في مراحل التعليم كلها، ونشر الثقافة الإسلامية المستمدة من القرآن والسنة بين فئات الأمة وخاصة الشباب.

3 ـ إصلاح وسائل الإعلام في البلاد الإسلامية، وتدعيمها بالأطر الكفئة المتخصصة، وجعل برامجها تعمل على

ترسيخ العقيدة، وتقويم السلوك، والالتزام

---

1 ـ رسالة أمير المؤمنين بمناسبة القرن الخامس عشر الهجري ص 20 ـ 22.

بأخلاق الإسلام وآدابه، وتنقيتها من كل ما يشين ويخالف مبادئ ديننا الحنيف، حتى يعود للمجتمع الإسلامي حياؤه وأخلاقه وسماحته.

4 ـ إنشاء وكالة أنباء إسلامية تحقق أهداف وغايات أمتنا الإسلامية، وتقف في وجه تيار الأخبار التي تبث ضد عالمنا الإسلامي، وتعمل على تشويه صورته.

5 ـ إنشاء قمر صناعي إسلامي يخدم الإعلام الإسلامي، ويوحد مناهجه، ويبث برامجه، ويعطي الصورة الحقيقية لأمتنا الإسلامية ودينها، ومجتمعها، وأخلاقها، وعطاءاتها، والعمل على الاستفادة من الأقمار الصناعية العربية لتحقيق هذه الأهداف والغايات.

6 ـ إنشاء لجنة لمتابعة توصيات ندوتنا، والعمل على تطبيقها، حتى تحقق النتائج والآمال المعقودة عليها.